البهتاني

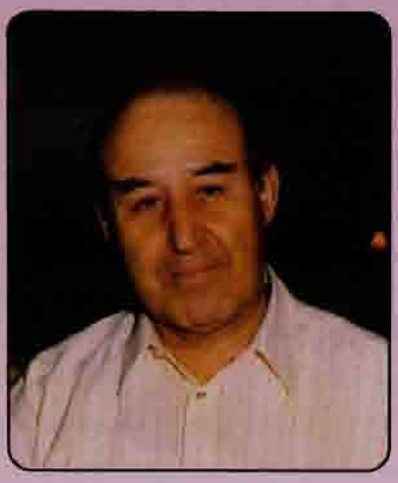

بقلم :
أحمد عبدالسلام البقالي

تزوير الشخصية لا يقل جرماً عن تزوير صك أو وثيقة رسمية .. فمن يزور شخصيته «يظهرها على غير حقيقتها» مؤهل لارتكاب جريمة، لأن حياته مبنية على الكذب والافتراء .. والنميمة والإزدراء .. وجوهه كثيرة أقنعته متعددة .. أمزجته متقلبة .. اخلاصه في العمل الخير غير وارد .. خيانته للأمانة متوقعة في كل لحظة .. صاحب هذه الشخصية انتهازي بارع .. ينسج الأكاذيب في عالم الوهم الذي لا يلبث أن يذوب هباؤه في ماء الحقيقة ..
بين أيدينا شخصية من هذا النوع يرويها لنا في قالب قصصي مبدع الأستاذ أحمد عبدالسلام البقالي بعنوان «البهتاني».

رأيته، لأول مرة، في إحدى المقاهي الشاطئية، كان كله يلمع بالخواتم والسلاسل الذهبية في عنقه وأصابعه ورسغية. وكان يفرق شعره الأسود الناعم في الوسط، ويتحدث إلى من حوله بجميع أطرافه، وحين هم بالانصراف نهض له الجميع.

سألت عنه صديقاً من المرافقين له، فقال:

- إنه الضحاك.

- هل هذا اسمه؟

فاهتزت بطنه، في مشروع قهقهة، وقال:

- لا، إنه الضحاك على عباد الله!

- ولذلك اجتمع أولئك عليه؟

- ليس حباً له، بل اتقاء لشره! فلا يمر أحد أمام هذا المقهى ويراه، إلا ويجلس إليه، مخافة أن يصير موضوع الجلسة الأساسي، حتى ولو كان ذاهباً في عمل مستعجل! ولا يقوم من مجلسه أحد، مهما كانت ظروفه، حتى ينصرف الضحاك، لنفس السبب! فهو عبقرية في تحويل المخلوقات البشرية العادية، بل وحتى المحترمة جداً. إلى رسوم كاريكاتورية مضحكة، والناجون من لسانه هم الحاضرون في مجلسه.

وعرفت من صديقي أن اسمه جميل الكفتي، فرجوته ألا يقدمني إليه، مهما كانت الظروف والأسباب!

كان جميل الكفتي، خلافاً لاسمه غير جميل. كان وجهه شبيهاً بوجه فرانكنشتاين، ببشرته النحاسية وآثار الجدري عليها، وعينيه الضيقتان، يصيبان الناظر إليهما بعسر التنفس، وفمه لا يفتحه إبداً على خير!

ورغم دمامة وجهه فقد كان ذا ذوق رفيع في اختيار ملابسه وربطاته وخواتمه وعطوره، وكان دليل شباب مدينته في اختيار آخر صرعات الموضة! ولم يكن أنيق المظهر فقط، بل كان حلو الكلام، يطعم أحاديثه بكلمات وجمل مختارة من اللغات الأجنبية التي كان ينتقيها كأهلها. وكان حريصاً على رشاقة حركات يديه، حرصه على

انتقاء كلماته وعباراته.

كان موظفاً بخارجية بلاده. حين وقع عليه اختيار سفير قريب له ليذهب معه إلى الخارج، اشترط عليه أن يتزوج، فطلب من أحد أقاربه أن يختار له زوجة، وفوض له الأمر، دون أن يشترط سوى أن تكون المرشحة من أسرة كبيرة، ومقبولة المظهر، مرهفة الإحساس، تميل الى الرشاقة.

ولم ير زوجته إلا ليلة الدخلة، ويبدو أن كل شيء سار على ما يرام، فبالرغم من أن الزوجة كانت ذات وجه جميل، فقد كانت شديدة النحافة، ذات بياض طباشيري مرض، فقد كان جميل الكفتي قانعاً بحظه، بل ويبدو سعيداً به!.

وحين استقر في عمله الجديد بالسفارة، بدأ يدعو الأصدقاء والمعارف إلى بيته كأي دبلوماسي متطلع إلى أداء دوره على أكمل وجه، وكان يدلل زوجته نبيلة، أمام ضيوفه، لدرجة الافساد والاحراج، كأن يطعمها، عبر المائدة، ويمد إلى فمها قطعة لحم قائلا إنه اشتهاها لها، أو يقشر تفاحة أو موزة، ويتوسل اليها، بذلة العاشق، ألاّ ترفضها، وهي تحمر خجلا، وتمتنع، وتترجاه أن يكف عن تمثيله!

وفي داخل السنة رزقا بطفلة في جمال أمها، لحسن حظها. وسافرت الزوجة إلى أرض الوطن، في صيف تلك السنة، متعللة بشوقها إلى أهلها، ورغبتهم في رؤية الحفيدة.وفي الحقيقة سافرت لتستريح من زوجها، فقد كانت فتاة على الفطرة، لا يحتمل طبعها الملق والنفاق!

ومر شهر وشهران على ذهاب نبيلة إلى البلد، ولم تعد وحين حاول استرجاعها بكل ما أوتي من حيل وتمثيل طلبت منه الطلاق، دون أن تعطي مبرراً على الطلاق، وأظهر هو من النبل والأريحية ما يكفي لتبرئته من كل إساءة إليها، وإلقاء التهمة بكاملها عليها هي! ذهب بنفسه إلى البلد، وترجاها، ووسط لديها الأهل والأحباب من الأسرتين، وهي متمسكة بقرارها، حتى نصحه أهلهما معا بتسريحها بمعروف، حتى تراجع موقفها بنفسها! وعاد إلى السفارة لابساً ربطة سوداء، وقد سبقه إليها خبر الطلاق.

أما سبب الطلاق الحقيقي، فقد كان وجهاً صبوحا ذا عينين في سعة السماء وعمق البحر الصافي، تشعان براءة وسعادة! كان اسمها ليلى، وتعمل مضيفة بأفخم فنادق المدينة، تعرف عليها أثناء حمل زوجته وثقلها، وتنظيمه لحفل الاستقبال، بمناسبة عيد بلاده الوطني، بصفته محاسب السفارة، ولكنه قال لها إنه الوزير المفوض، والرجل الثاني، بعد السفير، وأن دوره هو قريب ليصبح سفيراً!

وتوطدت العلاقة بينهما، وحين تغيب السفير وعدد من كبار موظفي السفارة في عطلتهم السنوية، بقي قائماً بالأعمال، فصار يأخذ سيارته الرسمية، ويذهب بالسائق والعلم، ليأخذها من بيتها إلى المطاعم والمسارح والكازينوهات الكبرى للسهر. وكان يمنح سائق السفير بقشيشا بنصف أجره الشهري، ليفتح له باب السيارة، وهو في حلته الرسمية، وقبعته الأنيقة، ويقول له: «معالي الوزير، القائم بالأعمال!» وهي تسمع وترى!

كانا يتعشيان، كل ليلة، في مطعم فخم جديد، ويترك للخدم بقشيشاً كبيراً يثير دهشتها وحين تعاتبه في ذلك، يجيبها بما يوحي بأنه إبن عائلة غنية، وأن أجرته بالسفارة لا تكفيه حتى لبقشيش الخدم! وكان يحدثها عن أفراد عائلته، وكيف أن خالته بطلة تنس، وأن ابنتها فارسة وبطلة دولية في قفز الحواجز، وكيف أن قصور الأسرة مزينة ببعض أنفس اللوحات الشهيرة التي اختفت من المتاحف الأوروبية، بعد انسحاب النازيين في الحرب الأخيرة!

وبلغ به الخيال المرضي حد إرتشاء موظف الشفرة بالسفارة، ليأتيه بنفسه إلى أحد الفنادق الكبرى، حيث كان يتعشى مع حبيبته، على ضوء الشموع والموسيقى، ويسلمه نسخة برقية تطلب منه الوزارة فيها إرسال بعض الوثائق لاتمام ملفه لتحرير أوراق اعتماده سفيراً في بلد كبير! وفعلاً جاءه الموظف بالبرقية الزائفة التي كتبها بنفسه على آلة التيليكس، وانحنى عليه، كما أوصاه، بأدب جم، وهمس على مسمع من الفتاة: «سيدي القائم بالأعمال، أردت أن أكون أول من يبشركم بهذا الخبر السار!» وسلمه البرقية، فألقى عليها نظرة خفيفةوسلمها اليها. وبمجرد ما قرأتها، قامت من

مكانها وذهبت إليه لتعانقه مهنئة! فأعطى هو ورقة بمائة دولار للموظف، وطلب مشروباً على حسابه، لجميع الحاضرين!

وفي الحقيقة في ذلك الجو الساحر العامر بالأحلام الوردية والعطر والموسيقى والشموع، طلب جميل الكفتي من ليلاه يدها، فسلمته نفسها راضية سعيدة! وذهبا لقضاء شهر العسل في قرية سياحية جميلة على ضفة بحيرة شهيرة.

وفي اليوم الثالث، دق جرس الهاتف الرهيب الذي كان يتوقعه ويخشاه! وجاءه صوت السفير العميق الغاضب، يطلب منه العودة إلى العاصمة في الحال! فقد اكتشف أن المبلغ الذي أرسلته السفارة لشراء مقر جديد للسفارة اختفى من الصندوق، ولم يبق منه إلا ما يكفي لشراء سكينة لقطع يد سارق أو حبل لشنقه! وواجه جميل الكفتي الموسيقى بصمت المذنب وخشوع التائب! وبما أنه كان من أقارب السفير، فقد قال له هذا بجد منذر: «لن أخبر الوزارة إذا وعدت برد المبلغ داخل ثلاثين يوماً ..»

ولم يكن جميل الكفتي يملك من المبلغ الذي شتته بجنون مثير للحنق، ما يشتري به بذلة مستعملة! فاضطر إلى الاتصال بوالده ليخبره بالمحنة التي هو فيها، من جراء سرقة حديث بالسفارة، ويرجوه أن ينقذه من الورطة، وأخبره بأنه، إذا لم يدفع المبلغ الضخم، سيدخل السجن ويطرد من وظيفته!

وكان رد الوالد العجوز الذي يملك بضع منازل قديمة يعيش على أكريتها، إنه حتى ولو أراد بيع كل ما يملك، فإن السوق ميتة، وسيطلب ذلك أزيد من سنة، ولو باعها بسعر التراب!

وعاشت ليلى مع زوجها جميل الكفتي محنته بشجاعة وحب نادر! فقد كانت فعلا تحبه، وزاد حبها له، بعد الفضيحة المالية لأنها اعتبرت مافعله كان بدافع حبه لها! واحتملت المحنة إلى جانبه صابرة، وعادت معه إلى وطنه، مثالاً للزوجة المحبة المخلصة!

وفي وزارة خارجية بلاده مثل أمام اللجنة التأديبية التي رأت في طرده، أو تقديمه للشرطة خسارة مادية للوزارة، فاستبقته موظفاً على أن يحجز نصف مرتبه الشهري، إلى أن يتمكن والده من دفع المبلغ عنه، واضطر هو إلى التكيف مع راتبه الجديد الضئيل، ووجدت ليلى نفسها تعيش في شقة من غرفتين في عمارة وسخة بحي فقير جداً، ومع طبقة من البشر أشبه ما يكونون بنزلاء السجون!

وخاف جميل أن تفلت منه، فحدثها برغبته في الانجاب، فسكتت، وظن أنه سكوت الرضى، ولكنه اكتشف أنها كانت تأخذ حبوب منع الحمل، فغضب وثار! وأصيبت هي بانهيار عصبي، فأخذها الى بيت أهله، بمسقط رأسه لتستريح وعاد وحده الى عمله. وفي البيت التقليدي العتيق، عرفت ليلى خالة جميل التي كان يقول لها عنها أنها بطلة التنس، فإذا هي سيدة سمينة مسنة، وكذلك ابنتها بطلة القفز على الحواجز في حلبات الفروسية الدولية! ولم تر من اللوحات الفنية على جدران البيت القديم إلا بقع الرطوبة وشقوق القدم! وأدركت أنها تزوجت أكذوبة كبيرة، وعاشت في عالم من نسيج العنكبوت! وذاب الحب الكبير كما يذوب هباء الوهم في ماء الحقيقة!

وفي الأسبوع الثاني، وصلتها رسالة مسجلة فأخذتها الى غرفتها بالبيت القديم دون أن يعرف أحد محتواها.

وفي صباح اليوم التالي دخلوا غرفتها فوجدوها خالية من جميع أمتعتها، ووجدوا رسالة الى جميل فوق وسادتها. ولم يفاجأ جميل بذهابها، فقد كان يتوقعه وحاول الاتصال بها، ولكنه كان مقصوص الجناح!

وأصبحت المجالس التي كان جميل الكفتي واسطة عقدها، مصدر رعب شديد! وصار يشعر كلما مر بجماعة من معارفه، أنهم ينهشون لحمه، ويشمتون به، وأصبح الضحاك المحترف على عباد الله، اضحوكة لهم!

وعلم أن نبيلة زوجته الأولى قد فتحت مدرسة خاصة، وأنها أصبحت ذات ثروة ومال وجمال، وأنها لم تعد نحيفة، كما كانت حين تزوجها فبعث اليها يحاول استرجاعها، فلم تزد عن قولها لمن جاء يخاطبها: «هل تريدونني أن أعود إلى ذلك المهرج الكذاب؟!» ■